تَرنِيمةُ كَمان

إبن عوف النمر

الطبعة الثانية

رواية

ترنيمة كمان

الجزء الأول

إبن عوف نمر

رسم الغلاف: لينا

إهداء

إلى عمار بكري

إليها..

ليس بالخبز وحده يحيا الأنسان. "السيد المسيح"

جميلة قزح

"ذات مرة وأيضا في مداري اللا واقعي أو الواقعي رأيت فوجا من الناس يرسمون هيكلا دائري، ساقني فضولي بين الزحام إلى المقدمة حيث رأيتها؛ جالسة وسط دائرة على كرسي أبانوسي تحمل على يدها آلة موسيقية وترية ذات لون بني مائلا إلى البرتقالي، كانت في داخلي رغبة تواقةللإستماع إلىأي تلحينا من أناملها، إنها المناسبة للعزف بكل أنواعه.. "

للوهلة الأولى حينها عندما كانت تبلغ الثامنة عشر من دلالها رأيتها، رأيتها وعيناي قد رصدتها بحركةٍ بطيئة، كانت فاتنة الجمال، بهية المحيا، أنثى في كل تفاصيلها، تنقل قدميها ببطء كأنما تنسق خطوها مع نغم هادئ، وجهها مستدير ساطعًا يتلألئ كسنا بدرا في أوج ضياه، عيناها نجلاوان ولوزيان وسوداوان أيضا، محروسان برموش كثيفة وطويلة، ممتلئة الأفخاذ ولكن نحيفة في فستانها الفضفاض خصرها ممشوق يحاكي شكل الساعة الرملية، وذرتاها مصطبغتان بلون أزهر ناصع طبيعي، نهديها بازغين كما لو أنهما رومانتان صغيرتان. كان الطريق صامتًا لا ارى ولا أحس سواها، رعشتني كما لو أنها صقعًا كهربائيًا شل العصب الخامس وبدأ عصب فكي مشدودًا إلى أن عبرت نقطة دهشتي، أصابتني بحسنها ثم أصحتني من غيبوبتي حين داعبني عبق عطرها الذي كان فائحًا كطيب الفردوس الذي جاء في الكتاب وصفًا، لاحقتها نظراتي متعبدة بلهفة عاطفية جامحة ثم انتهت صلاتي حين تلاشت هيئتها الباهية من مدى نظري الملتهب ، وللتو أشتقت لنظرة أخرى. لقد عجزت برمجة جهاز وعي عن تفسير تلك النشوة التي غمرتني على الرغم من أنه ليس سيء الأ داء. طرح همي الأول تساؤلا هل أراها مجددا.

لم ينقضي ليلا دون أن يزورني طيفها؛ زارني طيفها سبع ليالي ونصف يوم. خمس دقائق فقط.. خمس دقائق من النصف الآخر كانت فرصة أخرى لأراها مجددا، أرسلت نحوها نظرة ثاقبة حتى جال في خاطرها ما تحدثت به عيناي ذلك الحين، ثم تسارقنا النظرات وأختفت دون أن تلوح أو تنبس بكلمة.

لاحقا أتضح أن ما رأيته ليس نوعًا من البشر لقد عدت عشرات المرات إلى ذلك المكان، أطلقت عليه أسم الحيز المبارك. وهو مكان معروف يقبع الخرطوم القديمة من فينة إلى أخرى يقصده الشعراء والأدباء و الناشطون والمثقفون وأشباه المثقفون أيضا، وعلى حواشيه محلات بيع الثياب الفلكلورية والأشكال الخشبية المجسمة، في حقبة ماضية كانت فيه تمارس الحياة دون قيود، حياة تخضع للحكم الذاتي، وحكى صديقي العجوز في رواياته البطولية أن هذا المكان كان أفضل بار يقدم البيرة، الويسكي، الكونياك، والنبيذ، ومأكولات أفرنجية. كنت أجلس على المميز من مقاعده الخرسانية إلى أن ينطفي آخر شعاع ثم أحمل بقايا صبابتي المنهكة وأعود خائب الأمل بخطوات هزيلة بائسة. إن البؤس الذي حلا على حياتي جعلني أمارس سلوكا غير طبيعي، كلمات صديقي الضارة المفزعة تلك تتناسب طرديا مع مستوى هرمون

الكوريتزول في جسمي، أرددها في سري وجهري انعزل بها عن ملاذ الليل؛ لقد قال لي حسب تفسيراته الأيدولجية:

-دي بت إبليس ذاتها.

وكان يخطر على وعي أحيانًا بأنها كذلك، عندما يحل الظلام ويخلد المكان في نوم عميق يلازمني الأرق أسبح في غياهب الليل و أردد كلمات لا تؤدي إلى معنى حقيقي: "أخرجي أيتها الجنية فأني من محبي الجن حين يمتلكون جمالا فاتنا مثلك، أخرجي.. وأدهشيني بل أصقعيني مرة أخرى فإن لذتها منعشة كنسمة رقيقة تدقدق الإحساس، حرريني بعطرك الذي.. أخرجي.. كي استشعر جسدك الرقيق".

أنتظرتها إلى أن تشتت أشعة لامعة في الأفق ثم أدركت أن الذي يخالجني من شعور مبهم ماهو إلا إرهاق للمخيلة اللعينة. ذات مناسبة صوت الموسيقى الصاخبة أفتعل ضوضاء المكان، أبتلع ذلك الهدوء الذي يبعث في الروح راحة مستقرة، قد يكون هذا الصوت هو أبشع ما تردد على مسمعي، إنه مؤدي يعتقد بأنه يمتلك مهارة طربية يصعد ويهبط بسلالم سوقية اللحن، في أحسن أحواله ربما يكون مغنيًا لا مطربًا، أسمه "نجدي" ويضاف إليه

أسم لحي على تخوم الخرطوم لا أستحضره الآن ربما أخبركم عنه لاحقا أو أتغاضاه، أظنه معروفا في الأوساط الفنية العشوائية، لقد كان مناسبا للإحتفاء بنجاح صديقي، فالفاشلون أمثالنا دائما هم من يصنعون حفلات النجاح هذه، بالكاد أجتاز أمتحانات الشهادة هذا با لأضافة إلى أحرازه درجة مخجلة في الدراسات الدينية لكن لايهم؛ ما يهم هو وعد والده؛ والألتحاق بكلية الطب على النفقة الخاصة.

على الجانب الآخر جلس كياني مبتعدا عن الأجواء الضوضائية و الرقصات الحركية المتكلفة التي لا تناسب الايقاع، أنهم يختصبون الكمبلا، والنقارة، التونجي، الجابودي، الصقرية، الفردة، التم تم، الجراري، الكرن، المردوم، والدليب أيضا. بلغ هذا الحفل قمة السخافة، شرزمة من الداعرات المحتشمات، الكثير من سيدات الغيهب الحازقات وبعض الملتزمات بقواعد الأسرة، ونساء خطيرات. إبتعدت وعلى يدي اليسرى زجاجة عميقة، لقد زين الحفل بصناديق كثيرة من ماء الحياة المعتق الفاخر الذي ينعش المزاج ويذهب بالوعي البائس، إحتسيت نصفها وبدأت الطرف تخرج من بين لساني الثقيل: "أنا المررر.. ... ... أنا ترباس"

فجاة.. أمام رؤيتي ضئيلة المدى لاح كيانها الذي تجلى فيه إبداع الخالق، بين روعة إطلالتها ولذة السكرى سمت روحى لمنزلة الإ نتشاء الروحاني العميق، تحرك خطوي تلقائيا ناحيتها كانت تبادل صويحباتها الضحكات بأسلوب لطيف، مددت يدي ألتمس هذا طيفا يخيل لي أم شخصا، إن اللحظة التي شددت فيها ساعدي بإتجاه طرفها الناعم أودت بي إلى حيث آخر دقة لقلبي وعدت مرّة أخرى ، وعندما لامست عودها اللين قالت في فزع:

-منو أنت؟

رددت على قدر إدراك رأسي المخمور:

-أنا كل شي.. أنا النيل!

قهقات رفيقاتها الداعرية تلك أبشع موجات صوتية خرجت إلى الوسط الهوائي، ضحكن على هيئتي ظنن بأني شاذ الطباع، الجميع يقولون ذلك حتى عندما أكون وإع. وقفت برهة دون أن أحرك ساكن، لكنها كانت لماحّة جدًا رددت ما كانت تتحدث به عيناي في توها، قالت:

-أتقابلنا قبل كده؟

قلت وأنا قد بلغت نقطة الإتزان والتجاهل الذاتي:

-شوفتك كتير شفتك قبل ما أقابلك؟

رسمت على محياها إبتسامة هادئة ثم أخرجت رنة منتظمة مملوءة بالنغم. لم تبدي إستحياء من كلماتي الغزلية تلك؛ بدوت لها كطفيل.. سكيرا لعين. لم أك يومًا أنيقًا فأنا أرتدي الملابس المفروشة على جانب الطريق، وحينًا آخرًا كسوة معطرة من سوق بقايا الموتى الشهير؛ سوق القوقو.

ككل يوم عادت الأشعة متبعثرة في الأفق، فتحت نافذتي الخشبية متآكلة الأطراف كبقايا خلية نحلٍ مهجورة. يا له من حي حزين ثلا ثة مساجد وشفخانة ضئيلة الخدمات تؤدي وظيفتها في المساء، يوم الجمعة تأتي الأصوات من جميع الأنحاء بحناجر مختلفة وموضوع واحد وأحيانًا يرددون خطبًا سابقة. من الحماقة حقا أن تتخذ من هذا الحي مكان يحتويك؛ حي فيه كل أسباب أقتراف الأ فعال اللا إنسانية والرياء المجتمعي. كانت ليلة البارحة مضاجة لا أتذكر عنها موقفًا سوى شتائًا من ملامح ضبابية؛ قهقات بنات الليل ، صوت الموسيقى الصاخبة، الويسكي المستورد وجزء من محادثة لست متأكدًا من أنها كانت حقيقية أم أنها مجرد طيف، أو

شيء لا أجد تعريفا له سوى أنه عاطفة مثارة؛ الجزء المسؤول عن عاطفتي إمتص فيضًا من فوتونات طيفها فأثارت الشحنة العاطفية الخاملة بداخلي، بدأت أختلق لها مسميات؛ كبنت إبليس مثلا كما وصفها جرثومة. ذات مرة وأيضا في مداري اللا واقعي أو الواقعي رأيت فوجًا من الناس يرسمون هيكلا دائري، ساقني فضولي بين الزحام إلى المقدمة حيث رأيتها؛ جالسة وسط الدائرة على كرسي أبانوسي تحمل على يدها آلة موسيقية وترية ذات لون بني مائلا إلى البرتقالي، كانت في داخلي رغبة تواقة للإستماع إلى اي لحنا من بين أناملها، إنها الأيدي المناسبة للعزف بكل أنواعه، قالت وقد مال ذقنها نحو الكمانجة:

_مساء الخير.. حأعزف لحن نوبي.

من الناحية الأخرى قال قائل منهم:

_ماتعزفي أتكلمي بس، صوتك أحن من الكمنجة زاتو.

لقد صنعت لحنًا ذي دوزنة أفريقية شيقًا وشجي أعترى كيان الحاضرين حتى هزهم طربا، أما أنا فقد إجتابني إحساس رقيق حتى بلغت ذروة الذروة لأعلى قمة إنتشاء، أمتطيت سرج أحلامي

وسبحت في سهول موطن ميلاد البشرية بكل ما أحمله في أسفاري من أنسانية؛ وجهي الأثيوبي وداخلي المضيء ردفان يتكوران في الكون متسامحان مع كينونات الفراغ.. توقفت رحلتي لأجل صياح طائري الكناري الذي تعمد إيقاظي.

إن الجزء الإدراكي من مخيلتي تصور فكرة رؤيتها بعيني العقلية، لكن مقابلتها في حفل إحتفاء لعين وإثارتها لتحسسي جعلني أفكر في اللجوء إلى شيخ أب خيط على الرغم من أنه مجرد عربيد يمشط لحيته لأجل قوته اليومي، كنت مجبورًا على الذهاب نحو منزله الذي يعبد فيه الشيطان مقابل الإستحواذ على عقول السذجاء الذين يمارسون الدين فقط لتمصرهم أثر سلفهم في هذا الحي المسلم ربما لكانوا مسيحيين لو ولدوا في الحي المجاور؛ حي الكنيسة القبطية أو حي "الكفار" كما يجري على لسانهم أحيانا. يعتقدون بأن لديه كرامات الشفاء وتحديد المصير. لقد سمعت عنه عديد الروايات التي لم تستوعبها مخيلتي، أنه أبشع زنديق على وجه المسطحة يؤذي البسطاء طوال الإسبوع ثم ياتي يوم الجمعة يصعد على مرقاته وينادي بالنهوض الفكري وبناء المجتمع، سماه أبواه ميرغنى وبمجرد أن أصبح شيخا أختار لمقامه أسم تجاري "أب خيط".

أنه يوما أحمقا ككل أيام حياتي بدأ من الإغفاة التي ذهبت فيها بنات افكاري تؤدي عادتها السيئة، قطعا لم تأتني عارية في حلم، ربما لأن رغبتي لا تحبذ فكرة رؤيتها على تلك الحال فهي ليست أهلا للنداءات الشهوانية. رنة نغمة هاتفي الشبيهة بصافرات الصغار..

-ألو..

-يا ترباس.. الشباب ماشي الكورنيش، أها كيف؟

-معاكم ضان؟

-لا.. بنغرف أي حاجة من هناك.

-شكلها حجات ضاربة.

-لالا يا.. تعال انت بس.

-لي قداام.

-أنت وين؟

-قريب.. قريب شديد.

_يلا سلام..

_يلا طيب.

أعلم أن مكالماتي اليومية يستقبلها أكثر من شخص، ولكن من يكترث.. أن تفاصليها تافهة جدا، مثلي تماما فاليستمتعوا بهرائي عديم المنفعة. رميت هاتفي اللعين ثم مططت عصبي الفاتر و أخذت غفوة أخرى.

بعد وقتا ليس بالقليل إرتديت ملابسي التي أحسب أنها متناسقة، بحثت عن جوربي المثقوب بين قمامة غرفتي القذرة، لا أعتقد أن الجندي في الحرب العالمية الثانية كان يرتدي جورب، أكاد أجزم بأن حذائي هذا شارك في الحرب ضد موسوليني، بتاتا لا أؤمن بهراءات الحداثة والتحضر ومثقفاتية الزمان.

أنني ذي منزلة رفيعة في حيي، على الطريق الجميع يقابلوني بطريقة مقدسة عدا جارتي التي قابلتها كمتراس أنتصب طريقي، أخذت تحملق في وجهي بنظرات ساعرة ثم عوجت شدقيها، لم تسترعى إنتباهي إلا بعد أن أعطتنى ظهرها؛ فنظرة من أردافها المنتفخة تعطي الحياة، ينادونها "رزة" ويطلقون عليها فيما بينهم

أسم "المقسم"، هي كمثرى تمشي على رجلين غير أنها تأرجح خصرها بطريقة مستفزة، من دون أدنى شك رذاذ جديرة بلقب ملكة جمال العشوائيات، وهي شيوعية ملتزمة، نزيهة صادقة لقضيتها، تعون الضعفاء دون أنتظار مكافئة من أحد، في خفاء. مؤخرا كانت على علاقة جسدية مع جرثومة، وقعت بصري واحدة من رسائله المكتوبة بالليمون على ورقة مهترئة تأخذها الرياح جيئة ورواحا أمام طبلية حجوج، مكتوب عليها "يا بت يا نيل.. وفي وسطها قلب مقسوم نصفين وكتب لها أيضا : "خلي الباب مفتوح الليلة يوم الفتوح" وفي الأسفل "حبيبك المخلص آدم". وكما أعتقد أنا وكل من يقبع حي البامية من رجال ونساء وأطفال و شياطين أنها تنازلت عن عزريتها له، وعلى غرار ما فعله جرثومة فعل ذلك أيضا في عديد المرات بتملقه لدور الأب وأشباع خديها بالقبلات و وضعها في حجره وملاعبتها، وذلك لما كانت ترداد خلوته أي أنها كانت في عنفوان صباها. لم يعرف أي كائن من كان تلك الحادثة قط، فقط أنا وهي وشيخ ميرغني والشيطان، وتعود هذه القصة إلى فترة عاتمة عندما كان عاطلا يجوس في طرقات حي البامية كما لو أنه ذكر نمل فقط يلاحق ويلاقح الإناث ، ربما أنعبق على نصف أوكار نساء حي البامية.

منذ عنفوان صباه عرفت عنه الشهامة والعاطفة والسرقة، أما عن الأخيرة فكان قد آمن بالحكمة التي سمعها ذات مرة على طرف لسان أم زين بائعة عصير البلح الفاسد أو المريسة كما تتغنى بها جارتي، الشيوعية الملتزمة؛ سمعها في عديد المرات تقول: "المكان البتاكل فيهو ما تخرا فيهو". أم زين ورثة هذه المقولة عن جدتها سعدية بت السلطان التي كانت فيلسوفة زمانها، وإحدى رموز حي البامية، شيخة أشهر "أندايّة" في البامية، والتي كان مفور لديها كل أنواع المريسة، الجمل برك، كبس التور، واقف زت، ... ألخ، حيث ينتشي الحيراى، وينزعون البؤس عن وجوههم، فيتوهون في سرحة يسمونها "غرمبل". ويشاع عنها أيضا أنها كانت ذات صلة بما يسمونه "الجن اللحمر". الأول من يوليو تلاقينا في ضجة مدرسة حي البامية الثانوية عندما ساقني فضولي للتعرف على الولد ذائع الصيت القادم من حيث يأكلون البشر، ولما كان يجلس منفرد، يحتل ركنا قصيا على حاشية كنبة توجهت نحوه، جلست، دون أستئذان قلت له:

-صحي أنت جاي من مكان الناس بتاكل بعض؟

مدة أنظر إليه بتفحص.. هو سائحا في ذاته.

حاولت أستفزازه:

-المدرسة كلها بتتونس بيك..

لملم أنفاسه.. ثم قال بلهجة حادة:

-إتو أغبياء.. البلد ده ما فيها كلام زي ده.

-طيب الكلام ده جابوا من وين؟

-ده أوثمان قاليم.. هبوبتو قال ليو في الغرب بياكلو الناس وسدقوه.

-ياخ عثمان ده كضاب ساي، أبوه زاتو كرهنا الحلة، أنت اسمك منو؟

-أنا.. اسمي آدم، وأنت؟

-يوسف.

من حينها أمسينا متلازمين؛ نتشاطر نوائب الحياة، نتبادل الأدوار، نصنع سجائر القصب، وشاي الحب استعاضة عن الصعوت، نذهب المدرسة على عربة الكارو المتعثرة، نتكدس على كنبه لعينة، ويؤلمنا تباطؤ الوقت في ظل هطرقات أستاذ التاريخ،

نكتسي ذات الملابس البالية المصطبغة بالفقاعات الترابية. نرمي الحجار على المنازل ونحطم فوانيس الطريق، عندما تذبح وليمة نتسابق لأجلها مدعوون لمرات ولا مدعوون لمرات أيضا، ومن هنا أختلقت لقب لرفيقي آدم قنن في الحلة وحلا محل اسمه؛ ويؤول ذلك إلى عهد بعيد حين عاد المتشرد عن قساوة نوائب حي البامية الطاحنة من حيث تمارس العنصرية الصريحة، يومها كسرت رقاب خراف من سلالة جيدة وشويت على طريقة السلات التي تثير اللعاب، تفوقت شهائية آدم على حيائه من وسوسات مشاطات حلة البامية، فمال لرغبته.

في ملعب حي البامية الأطفال العراء بأجسامهم النحيفة يركضون ليصنعوا المرح، يمارسون لعبة "الدافوري"، ذرات الغبار مع العرق المتسابق على جباههم رسمت خريطة مرج النيلين، مشيرة إلى الخرطوم مركز الثقافة الأفريقانية ولاحقا "كرش الفيل"، توقفوا حين عبرت بمساحة لهوهم قال أحدهم: توقفوا، ثم همس في أذن لاعب بجوراره.

-عارف ده منو؟ ده الولد الشيوعي.

رد صديقه:

-قالوا الشيوعيين كفار.

أبناء العمال هؤلاء في عرفهم السائد يعتقدون أن الشيوعيون هم وقود النار، ثم أنهم يؤمنون وبدون أدنى شك أن كل من يتحدث بقليل من الفلسفة ويكيل الاتهامات أتجاه الحكومة هو شيوعي، ثم أنهم لا يميزون بين الشيوعي والشيعي! ربما أكتسبوه عن ثقافة مجتمع حلة البامية البطرياركي ذي الأفق المغلق. اما آخر منزل في الحي دائما تتشكل على فضاءه سحائب دخان، خرجت منه أم زين إمرأة في عقدها الثالث تفوح منها رائحّة ذكية قالت بعد أن شدت زاويتا شدقيها:

-إتفضل.. أشرب قهوة.

قلت بإبتسامة هادئة:

- في وقت تاني.

لمزت و قالت:

-أشوفك قريب.

قلت بصوت متلهف وتواق:

-في أقرب وقت.

قالت وهي تبتعد:

-ما أشتقت للأولاد.

-أشتقت ليهم شديد.

أكلت شفتي السفلى وأستودعتها رغبتي.

إن محتفل حي البامية بما في ذلك هيئتهم التشريعية اللا دينية ومفتي الحلة حاج سيداحمد الشايقي جميعهم يوصفونها بالداعرة، لكن لا عجب في الأمر وهم يتمتعون بفروسية أصيلة إذ أنهم يحددون سلوكيات المرأة من ردائها.. من ردائها فقط! في حقيقة الحقيقة كان لجرثومة نظرة مغايرة عندما قال لي: أنها ليست كذلك هي فقط توظف جسدها لأجل إطعام أطفالها، لم يكتب على ناصيتها عاهرة. علي أي حال هي أشرف بكثير من شيخ أب خيط ، تؤدي وظيفتها من أحشاء ضميرها. وقال أيضا: لطالما توطأت عتب منزلها من أجل الصغار.

جلست على ضفاف أطول أنهار المسطحة برفقة أصدقائي البؤساء ، إنهم الأسوء على الإطلاق، الجلوس بجانبهم بمثابة الإعتداء على الذات، قال جرثومة يداعب أحدهم:

-جلحاتك كبرت.. لمن شعرك هرب من راسك.

قهقهنا بأصوات غليظه. لم تكن دعابته مضحكة فقط ضحكنا لإ ثارة الحوار بينهم، ثم تهيأنا للإستماع لرد الآخر..

-راسك الزي راس النملة ده، أنا لو أديتك شعري ده تاني ما بنشوف وشك.

قال و يشير بسبابته:

-أنت ما عارف حاجة الرأس ده.. آخر إصدار.

-وشك معفص.

-وشك زي ... الكلب.

-صلعتك زي.. قصرية القدح.

-..... ....

-.... .... يا وهمي ...

-..... ....

-..... ..... كمال شداد .....

-..... أخنق ..... اللحمة

-... .... كارداشيان

-.... عربي ... . خالة

-ما لغاش.. .... جخنون

-.... .... ما راني

-زرعوا ولا قام برا ....

-

- اسمع دي..

-... .... مسمار.

لا.. انت اسمع دي..

- .... فرار.

-خشمك ده كان يرسموه في كيس صعوت.

يطول حورانا غير المجدي، لم نجلس يوما نناقش قضية مهمة في المحيط، أننا مجرد حمقى يعتقدون أنهم يصنعون الحياة.

قال الشايقي محاولا تقليل شأني:

-كيف أم زين؟

هو لا يعلم أن أم زين التي تبدو له سافرة هذه أشرف من محبوبته التي يحفظ غشائها للمستقبل، وكنت أغار عليها قلت بإستنكار:

-بخير.

في خباثة مغشية حاول ممازحتي:

-انت مطالب بي دعوتنا قهوة في بيتها داك.

قلت متغاضيه:

-وقفت عن الشغل ده.

لاحظ "قلبك" تضجري مما قال فحاول أن يجرف المسار وهو مثقفاتي من الطراز الرفيع، واستشاري الشلة:

-ما سمعتوا بالحفلة بتاعة بكرة؟

قلنا جميعا باصوات منتظمة: حفلة!!

قال جرثومة:

-تقصد الزنقة بتاعت ناس تيسو.. دي حفلة واقفة جب!

في الحقيقة جميعنا نمتلك نفس الزوق السوقي، ففي البدء أعتقدنا أنها حفلة عشوائية؛ مغنية تهز طرفها البارز وعازف راقص يلف رأسه بطريقة جنونية.

-لالا ياخ دي حفلة موسيقى كلاسيكية.

قالوا متفقون:

-آه.. حفلات الصيص دي ما بتقسم معانا.

ربط ذهني بين الموسيقى الكلاسيكة وطيف عازفة الكمان التي لم تبارح تفكيري لحظة، قلت لا شعوريا:

-أنا ماشي معاك.

قابلتها

"للوهلة الأولى رأيتها حقيقة أكددت خيالاتي الوردية التي نسجت في تلقائية مطلقة! رأيتها متألقة على طابور العازفين تتميزهم، إبتسامتها عينها وجهها المستدير الساطع الذي يتلألئ كسنا بدرا في أوج ضياه، عيناها النجلاوان اللوزيان والسوداوان أيضا، المحروسان برموش كثيفة وطويلة، والأفخاز الممتلئة وفستانها الفضفاض وخصرها الممشوق الذي يحاكي شكل الساعة الرملية، وذرتاها المصطبغتان بلون أزهر ناصع طبيعي، نهديها البازغين كما لو أنهما رومانتان صغيرتان.."

عقارب الساعة تشير بزاوية قائمة إلى الثالثة ظهرًا، الشمس تبين وتختفي بين السحائب السابحة، ترسم ظلًا محدود الرؤية وتارة تنفقع وهجًا، توجهت و "قلبك" نحو قاعة الحفل، زمر من الذين حضروا باكرا يجوسون في أنتظار شباك التذكرة ولاحقا بدأوا يتخطرفون نحوه كما لو أنهم شغالات مستعمرة نمل، الشباك غير المنظم الذي لا يخلو من السيدات منتفخات الأفخاذ يستفذذن غريزتي وشهوتي الفحولية ساكنة عن رغبتها. أتيت بكامل وعيي.. أتيت وفي داخلى إحساس يخبرني بأن كل شيء يراودني في ذهني حقيقيا، إنها نداءات وعلامات تشير إلى غموض موجود فعلياً، كثيراً ما حلمت بأنى أحلق في الفضاء، وكثيرا جدا قابلت عازفة الكمان في نفس المدار. لا أخفي عليكم أنني في ذاك اليوم أخرجت ماء من أعلى ومن أسفل ومن حيث لا يخرج أيضا، منذ البداية شعرت بمتعة حقيقية ومرح متناهى وحرية منداحة إلى اللا نهاية، كان ذاهيًا جدا كالكرنفالات الملكية التي يقيمها البرجوازيون، ما يقارب أربعين عازفًا بمختلف الآلات على خشبة المسرح، وبدأوا يؤدون سيمفونية شرقية ممزوجة بين تغريد البلبل وخرير الماء ورنين جرسي رقيق. بحثت عنها بين الصفوف السائحة في ذاتها على المسرح فلم أجدها. مرة أخرى أرجعت

بصري وعاد مكسور الأمل، ثم لوهلة أعترتني رغبة ملحة على البقاء، وأيضا أكد وسواسي انها موجودة وملموسة تقاسمنا الكون والأوكسجين، إنتظرتها كما لو أنها ستخرج الآن من خلف الستار أو حتى من الجدار الصلب بجواري، قلت في داخلي: لقد أتيت من أجلها لأطوي مسافات الخيال المجهدة لن أذهب دون الوصول، بإستغناء قلت ل "قلبك" الذي مل الجلوس:

-إذا داير أمشي.. أنا قاعد.

جاء مقدم الحفل بالكثير من الشهادات التقديرية السخيفة لبعض الشخوص الفاسدون كليًا، الذين يشغلون مناصبا مرموغة، تجاهلتهم مبتعدا مع هاتفي، أعطيت تركيزي للعبة الوحيدة فيه، لعبة الثعبان. في لحظة كنت سائحًا معها ردد المقدم على طريقتهم:

-في الختام الأغنية النوبية الشهيرة "أسمر اللونا"..

قالت المغنية بصوت بحوح:

-مسكاجرو.. وي فينا؟!

غنت على إيقاع كومبا كوش:

كِل ناريل إِر كبيق انن

كبيق اسكرا سفيك انن

يان إِر آق ِشد أيغَ تابنمم

واسمر اللونا..

للوهلة الأولى رأيتها حقيقة أكددت خيالاتي الوردية التي نسجت في تلقائية مطلقة! رأيتها متألقة على طابور العازفين تتميزهم، إبتسامتها عينها وجهها المستدير الساطع الذي **يتلألئ كسنا بدرا في أوج ضياه،** النجلاوان **الوزيان والسوداوان أيضا، محروسان برموش كثيفة وطويلة، والأفخاز** الممتلئة **وفستانها الفضفاض خصرها** الممشوق الذي **يحاكي شكل الساعة الرملية، وذرتاها** المصطبغتان **بلون أزهر ناصع طبيعي، نهديها** البازغين **كما لو أنهما رومانتان صغيرتان. شعرت بخوفا مرعش إن تحقق مثل هذا الأحلام أمرًا جلل يدهش، إنها حقيقة ليست كما وصفها جرثومة أو كما زعمت خرافات شيخ أب خيط الفاسد؛ إنه نكتة سخيفة مزينة بلحية يعشعش فيها الضلال.**

طرقت الباب لثلاث فجاء إبنه الأصغر، طفلا قصير أكتم، لا يشبه

أطفال البامية النحلاء، قلت وأنا أتصنع العبارة:

-مولانا قاعد؟

لطالما رفضت مفهوم السيادة على البشر والاستعلاء العرقي، وناصرت حق الحياة لكل أنسان، فقط قلت مولانا على طريقة السذجاء كي لا أخالف معتقدات حيي الوثنية.

دعاني للتفضل نحو غرفة تقف وحيدة في جهة خالية من المنزل، غرفة ذات ضوء ضئيل مزينة ببعض النقش الإسلامي، في جانب آخر لوحاً كتبت عليه آية مقدسة، جلست على حافة المعقد بخوفا يرعش جسمي، قبل أن أنبس بحرف وبعد أن إحمرت عيناه قال:

-عارفك جاي لي شنو.. الهلاوس ، مرة الكمان.. لكن ما تخاف انت جيت المكان المناسب.

إستأذنني ليصلي ركعتين فدخل محراب وأنا أتململ من الشق الأ يمن إلى الأيسر، بعد وقتًا كان شاقًا على صبري جاء يحمل على يده قطعة من جلد حيوان ثم قرأ عليها بعض الطلاسم غير المفهومة، وبدأ يسحب الخيط ويرخه فيعود تلقائيا. بعض السذجاء في الحي يدعون أن خيطه هذا ممتد إلى السماء، قال بعد ان توقف

عن هرائه:

-لازم تجيب عتود لونو اسود نضبحو كرامة.

بدأ الكمان كأنه جزءًا من مثيراتها الحسية، متناغمًا ومتناسقًا مع مظهرها كشيء عفوي، مشابهًا للرسومات الأسطورية التي عبرت عن تاريخ الكمان في إيطاليا، إن الكمان كجزء منها يؤدي وظيفته المدهشة بالإستجابة لأناملها الناعمة والقوس. لم أبارح موضعي بعد إنتهاء الحفل بدأت القاعة فارغة تحتضن القليل من الناس، بعض المنظمون يلمون أغراضهم، وعمال نظافة يمارسون عملهم الإنساني أتجاه قذارة المؤخرات الجالسة على الماهوجني. جاءت مع صويحبتها يحملن رقائق البطاطس المعبئة، على الرغم من أن القاعة خاليه إلا أنهن إخترن الجلوس بجواري، قلت متوجها ناحية صديقي وموجها كلماتي لها:

-نفسي في بطاطس بجيب صوت!

إبتسم صديقي الذي دار في ذهنه ما أصبو له، إنها العادة التي ورثناها من الثانوية وطلنا عديد الجميلات بها. لمحت طرفا ناعما يقصدني؛ كانت يدها المقدسة بكل جمالها ولونها المشع إنها من الأ

أمور الفخمة التي يمكن أن تحدث لك، همست لصديقي أن يذهب لكنه أبى أن يحرك جسده المتحجر، أما رفيقتها الزيتونية بدأت رائعة جدًا عندما أختلقت أنها ذاهبة لتؤدي دور ما، أعلم أنها مثلت هذا المشهد لكي تهيأ لنا الأجواء، ومن سواي يستطيع استغلال هكذا مواقف، قلت:

-شفتك كتير..

-أنا.. شفتني وين؟

-في كل ليلة يطلع فيها القمر.

-وعلاقة القمر بي شنو!!

-لأنو يشبهك.

قهقت خجولة ثم أخفت وجهها خلف راحة كفها، وقالت:

-أنت شاعر؟!

-ما طوالي.. بس لما أكون جنب ناس حلوين.

-متأكد أنك طبيعي!

تجاذبنا أطراف الحديث وقلت لها أيضا:

- نتلاقا مرة تانية.

-أوكي تمام.

-لكن.. وين.. !

-أنا دايما هنا.

-من الليلة تاني طوالي بكون هنا.

-تنور.

-تشرفت بمعرفتك.

-وأنا كمان.

أعظم أنجازات حيواتي أنني نلت شرف الجلوس بجانب طرفها الناعم، أنها حالة شاذة يصعب ترويض وصفها ولحرارتها أندى جبيني.

تكررت زيارتي لمعهد الموسيقى، سجلت عضوية فقط لاقاسمها أنفاس الصباح، بيد أن تذوقي للحياة لا يستأنس تجمعات البرجوازيين. ففي مهدي كنت أعتقد أن "رقية البامية" أفضل مغنية على فراش المسطحة، وكنت أعتقد أيضا أنها تغني، ثم لا حقا أدركت قبل تدارك انطباعي السيء أن حلة البامية مجرد بقعة حزينة من الكون، وتلاشا تصور عقلي الضعيف للأشياء من حولي، وبت أتملق دور المثقف دون احتراس من مواجهة أفكار انسان البامية المتطرفة، ولما كان المضي نحوها يتطلب ذلك أجترأت المراهنة.

كان الحديث بيننا لا ينتهى، عذوبتها في نبس الأحرف وأنوثتها الفياضة وتعابير وجهها كانوا يثيرون جاذبية المحادثة، لكنني لست جيدًا في التحدث أمام عيناها الداجعتان. في اليوم الذي أعلنت فيه عن عشقي، وهو ذات اليوم حيث كانت برفقتي على ساحل النيل العظيم جلست على مقربة عني وعلى يمينها كمانها ينتظر رغبتها ليغازل أمواج النهر. كنت أبحث عن موضوعًا شيقًا يجعلنا نسيح في بعضنا، هي لا تحتاج للكثير من العبارات المتكلفة لنتوه في بعضنا، تمتلك مشاعر ناعمة، إكتسبتها من شعورها العاطفي إتجاه والدها فهي تحبه إلى حدًا بعيد، وكانت تخبره عن كل شيء، كانت

عاطفية عندما أبادلها المعسول من القول، متجاهلة حين يبدوا تركيزي باردًا، وعصبية جدا حين أوجه نحوها إنتقادات. بعدما عدت إلى المنزل وقبل أن أخلع ملابسي وقفت قلقا على نافذتي الحزينة، هل أخبرها؟

بعد طواف عميق قال الخناس:

-أذهب وطارحها الحب.

أبتسمت لخباثته، أخرجت هاتفي وناضمتها:

ردت بصوت طفيف:

-ألو.

-ألو.. صحيتك

-لا.. ما نمت لسة.

- خير.. في شنو؟

- لا بس.. اشتقتا ليك!

-آآآ.. إحنا قبل شوية ما كنا مع بعض؟

-انتي شوقك عايز زمن!!.. ياخ انا قبل ما أوصل البيت.. اشتهيتك

تبكمت دقيقتان.. وقالت:

-عاد تمام.. ده شوق جديد!

هناك لحظة من اللاوعي تأتي على هفوة لسان، قلت:

-أنا.. .... آآآ.. بحبك!

ربما كانت مفاجئة لها.. ولي أيضا! قالت متأتئة:

-بنتكلم في الموضوع ده في وقت تاني..

سحبت أنفاسي ولوهلة أعتقد أنها قد أعطتنى الموافقة فهي أحيانا تبدو خجولة جدا، وليست بارعة في التعامل مع هكذا مواقف.

الترنيمة

"..وأرتديت ملابس جرثومة ذات الماركة الفرنسية الشهيرة "لاكوست" التي أشترينها بثمن بخس من سوق القوقو، وساعتي ماركة "Ck" التجارية المنتجة عن الصين، ثم قصدت رؤية القديسة مهما كلف الأمر فبعد رؤيتها كل الأمور ستكون على ما يرام.."

وشوشت:

-دوزنة.

-دوزنة؟!

بدأت هادئه وهي تعزف ثم تسارع اللحن تدرجيًا فنفضت أجراس الكنائس غبارها الذي إستطونها دهور، غنى الكروان السجين أغاني الحرية، تحرك الثوار بخطاوي جامحة تصدر إهتزازًا، أطفال حيي لبسوا الأزياء الأفريقية التي تحمل بين خيوطها هويتنا ، وصنعوا كمانًا من قصب الذرة الجاف، تصافح النوبيون وبوخ السلام. رذاذ التي تمقتني لأننا ذات ليلة أشتبكنا على الفراش في غياب الرؤية وأباها الذي كلفني حراسة اسرته من البعاتي وحرامي الحلة؛ وها هي الآن تقابلني بأبتسامة ومجددًا أعطتني الحياة، شيخ أب خيط ثار على إفكه السذجاء، ففي آخر خيطه كان يربط الكتاب المقدس ويدنسه في قاع المرحاض، كان يشد الخيط فينجيه ثم يفلته مرة أخرى ليعطي الشيطان ما يريد، نادى الآذان: حي على الفلاح، من المساجد أعلن محاربة الإرهاب وقصت

الذقون الزائفة، فشى السلام بين الغبش، صار يوم الجمعة لحلول قضايا تلمس واقع البامية.. وجاء الخير.

لقد جعلت من الكمان كيان خارق للطبيعة طاف كل البقاع عابر با لأرصفة والحوانيت، حياه الجميع؛ عمال البلدية، النوارس المهاجرة عبر المحيطات، الحيارى التائهون في دوائر مغلقة، حياه النيل من المنابع إلى المصب.. حياه الثوار.

مقطوعة هيام الدافئة هي ذات الترنيمة التي وقفت صدًا في وجه الرومان؛ هي إيقاع الكنداكات وموسيقى تراث سلفنا النوبيين، هي ذاتها حضارتنا المسلوبة.

وردت مؤخرا قصة الولد من الحي العشوائي على تخوم العاصمة الذي ملك زمام أميرة حريرية مدللة، وقد قننت على جانبي النيل شمالا وجنوبا، تسبح سبحا، تمتطي أفواه المشاطات القذرة، وجرت أيضا على لسان ذبابات في جزارة جمال ساطور القابعة وسط سوق "أم دفسو" الأسبوعي وعلى بعد درجات قليلة من حلة البامية. لم يك من المميز نشر هكذا تفاهة على صحيفة رسمية ففي الأمس رشق حبر على صفحتها الاولى "خالة شايلة جنى ولا شافعة واقفة قنا"، أتعجب لأيمان البشر الجازم بهذه الصحائف

التي تروج لحقائق مشوهة، أنها صحائف شيطانية تصدر عن لصوص يمتهنون الأرتزاقية بحزاقة، اسم الولد (ي) اسم البنت (ه) ... ألخ، مع العديد من الأخطاء الأملائية.

كما لم أسلم أيضا من مناوشات شلته المصطبة أتجاه الحب الجديد و إيذاء لسان جرثومة الفاضح؛ كان يمارحني : "الكلب عندهم أغلى منك"، أن الطابع الطاغي على حلة البامية التدخل في شؤون الآخرين، ويؤول ذلك إلى عفوية وسطحية المكان، أننا في البامية قوما نتكاثر ونذبح الولائم ونسمي على أجمل الصفات ثم ماذا.. ثم الله كريم، يولدون على سجية بيضاء وما ان لبسوا في البامية إلا صاروا خطيرون جدا على أنفسهم والأنسان. أول ما ينتابك عند وصول محطة حلة البامية رائحة التبق؛ الفوراوي للعماري الجيد، وبجدارة يستحوذ مكانة فخيمة عند المتعاطون، وهنا أيضا يقاس الرجل بحجم الكيس والسفة، ويتفاخرون به وينشدون له أحيانا، حتى أن سيداحمد الشايقي تغنى: "التماك صديقنا وعزنا وملجانا"، هناك سر جلل لتفوق صعوت الفوراوي على سواه؛ وهو أستخدامه لذات الطشت في عطن الصعوت وغسل سرواله الداخلي الممزق، والكثيرون يجهلون ذلك. منازل البامية تكاد تبتلع

بعضها، بين بناءها يتضارى العرقي، والزنا، اللواط، التحرش و المثلية أيضا!

على الرياض تسكن، حالها حال العصافير الوديعة، متناسقة لينة وقوية ايضا، طبعها أقرب لأن يكون ملائكي، بين الفينة والأخرى تتمشى في ملامح مبتهجة على حديقة المنزل فتنحني لها الأزهار.. وقار! كقديسة نقية مباركة لم يمسسها سوء ولا بشر!، من العسير على خيالي أستلهام أنها تمارس حياتها مثلما نفعل. لما بعدت الشمس والطقس بدأ جادا في أرسال هبوب شتوي، غمرت جسمي بماء بارد وأرتديت ملابس جرثومة ذات الماركة الفرنسية الشهيرة "لاكوست" التي أشترينها بثمن بخس من سوق القوقو، وساعتي ماركة "Ck" التجارية المنتجة عن الصين، ثم قصدت رؤية القديسة مهما كلف الأمر فبعد رؤيتها كل الأمور ستكون على ما يرام، هاتفتها فأخبرتها عن ضرورة مقابلتها اليوم والآن في طريقي لأجل ذلك، قالت متعللة بأسباب هشة:

-صعب والله.. أبوي قاعد.

قلت في معنى لا شيء سيفسد هذا اليوم:

-برضو جاي.

التجول في أحياء الرياض مشيا على الأقدام امرا يجعلك تتأمل في حياة هؤلا الناس؛ بيد أنها حياة مترفة كذلك هي حياة بائسة بكل الأ حوال، بالرؤية إلى المباني الخرسانية المرتفعة يتشكل في الذهن وحشة المكان. كان البرد قارسا، والليل قد ظلل ظلامه على جدار الأرض، تمركزت في الجهة المقابلة لغرفتها وأخبرتها عن وصولي، طلت من نافذتها مشعة دافئة كما لو أنها شمس الصباح! توقفت صامتا عند روعتها، تحدثنا بالعيون، وبشفرات كيماوية، وبالجسد أيضا!، بعد أن عجز تعبيري قلت لها:

-أنا جاي ليك.

-ووب علي تجي وين!!

-أنا جاي ليك واليحصل يحصل!

-أنا أنا أنا أنا.. اوكي حنتلاقا مرة تانية.

-طيب تعالي أنتي!

-أنا لازم أدخل بعد كده..

-وأنا لازم أسلم عليك

-والله اذا ما رجعتا حقع ليك من هنا!

-تمام..

أعطيتها ظهري وهي بدورها تابعت خطاي، وكنت أعلم أن عيناها ترافقني فتعمدت المضي دون ألتفات. هذا الموقف شكل في ذهنها صورة البطل العاشق، وأصبحت ذلك الفارس الذي سيأخذها على صهوة حصان أبيض له جناحان ويحلق بها إلى موطن البحيرات الفضية. قبل وصولي لديار البامية ناضمتني مهتمة لحالي، سألتني عابثة:

-وصلتا يا ترباس!

مدة وقلت مستنكرا:

-ترباس منو؟

-أنا سمعتا صاحبك آدم بقول ليك كده!

-أي وصلتا

-اذا أوكي.. يلا جاو جاو.

-على فكرة آدم زاتو لقبو جرثومة.

-جد! .. طيب أنت ليه سموك ترباس؟

-حأوريك لكن ما أسي.

أنه أعتى سؤال يمكن أن يواجهني، مثله مثل السؤال الذي كان يطرح على شقيق جرثومة عندما يسألونه عن مكان عمله، وكان يعمل عاملا في مصنع بسكويت "سونيك"، ولما كان يتهرب عنه سألته السبب فقال:

"الشي ده اسمو اسم قلة أدب"

ساق على ساق جلست و ناضمتها كثيرًا دون توقف وهي بدورها قد ملت حركة شفتاي أشارت بسبابتها ناحيتي وطلبت مني أن أتوقف عن نبث الكلمات، قالت:

-لخص من غير نضمي.

حينها أنفجرت مشاعري حتى الثمالة فإني أخضع بين يديها البراقتين المفعمتين بفيتامين سي، وطلاء أظافرها الرقيق اللامع ذي اللون الأسود الذي يجعلها تبدو أنثى شقية متمردة، ورائحتها الجميلة المبتزلة كريح المسك. تحدثت لها عن البامية، الجانب المشرق فقط منها، فأصابها الذهول! ولولا خفت إفساد عقلها لأ خبرتها عن أم زين، وشيخ أب خيط، والفوراوي، وما تخفيه جدران البامية. قالت مرة أخرى:

-صحي.. أنت ليه سموك ترباس!؟

تجنبت نظراتها وبصعوبة بالغة نسجت قصة من مؤخرة رأسي. كان من الصعب الافصاح عن ما كنت أفعله في حمامات مدرسة البامية.

وحتى لا تكتشف خداعي باغتها:

-... بس بس عشان كده.

رفعت حاجبها الأيسر ولوت شدقيها بمعنى "انت تكذب" ثم قالت:

-أهاا.. اذاً أوكي.

ظننت لوهلة أن السعادة التي تغمرني مثلها مثل النيل؛ لن يكسوها اليباب، رفيقة جميلة وصديق يرافق خطاي، بدأ الأمر جميلا حينما توجنها صوب سوق القوقو نشترى بعض الأغراض لمناسبة طالما ترقبتها، سميتها "أربعة أغسطس العظيم".

شارع واحد.. شارع واحد.. شارع واحد..

قاتلنا في حافلات الحاج يوسف لأجل شدقيها ولأجل كل شيء جميل، وبعدما توهطنا على مقاعد الحافلة قال جرثومة:

-نقدس الجميلات.

-قلت تعلوني ضحكة غرة:

-نقدس الجميلات وبنات النيل.

-اها مرتك دي لونا المفضل شنو؟

-الأسود والكحلي..

بينما نتجادل في لون الهدية رأى جرثومة على المقعد المجاور

شاب يبدو مهندما، مزين بلحية وعلى ناصيتة علامة سوداء، رآه يتحرش بالفتاة على جاوره وهي تبتلع قصتها وتجهش بالبكاء، ولا زال يتحرش بها حتى أستفذ رجولة جرثومة فقام بمضاربته وسط دهشة ركب الحاج منفى.

-مالكم.. ؟

-الزول ده بعمل في حجات م كويسة للبت دي.

رجل يبدو علي وجهه الوقار يرتدي بدلة أشتراكية، قال:

-انت بي شعيراتك المبرمات ديل تلقاك ساطل ولا حاجة.. وانتي ما عندك ولي طالعة من البيت بي بنطلون؟

تلاحمنا مع عدد مركبة كاملة من الكائنات المتوحشة كليا، نلنا على اطرافنا من أيديهم ما يروض حيوان متوحش، وفي لمحة رأيت صديقي جرثومة مستلقي على بطنه بعدما دهسه بص الوالي. أبتلعتني الأرض لا زلت أتنفس.. أنفاس ملتهبة، غبت عن وعي واقفا أسمع هزيج الناس من حولي وأحس ضرباتهم المتتالية على ساعداي وهم يهرعون في أتجاه صديقي. ثم هربت مسرعا في أتجاه غير معلوم ألتمس أمان المسطحة، لم أكترث لما خلفي

سيكون صديقي ميتا في أحسن أحواله، وتمنيت أن يكون قد مات، فالموت أرحم أحيانا.مكثت في موضعا بعيدا عن البامية، و أم زين ، رزة، والفوراوي، مكان لا يعرفه أهل ولا أصدقاء.

تحسرت على حظي، لولا رأيتها في أحلامي لما كنت قد ذهبت للحفل الموسيقي، ولو ذهبت مع صديقي عندما ملى الجلوس لم أكن لأقابها، لو تأخرنا بضع دقائق في محطة حي البامية لم نزاحم في بص شارع واحد اللعين. علمت أنها ليست نهاية البداية ولا بداية النهاية.

أعمال أخرى للكاتب:

-أعماق السنتر

-زوجتي الخامسة

-البدائي

Nemer107